

الطبعة الرابعة
القَصَصُ الدِّيْنِيّ
العَرَبُ فِي أَوْرَبَا

طَارِقُ بْنُ زَيْدٍ

عبد الحميد جودة السحار

خرج طارق بن زياد في سبعة آلاف من
المسلمين ، جلّهم من البربر ، في أربع سفن ، جهّزها
يُليان لينتقم من رُذريك « لُذريق » ملك الأندلس ،
الذي اعتدى على ابنته فلورندا ؟

انطلقت السفن تحمل فوارس صناديد ، يتوقون
للقتال ، ويطمعون فيما في أيدي الأندلسيين ،
ويرجون الثواب ، فقد كانوا خارجين في سبيل
الله ، لرفع كلمته ، وإعلاء دينه ، وتوسيع رقعة
الإسلام والمسلمين .

ونام طارق في مركبه ، فرأى في منامه النبي
ﷺ ، وحوله المهاجرون والأنصار ، قد تقلدوا
السيوف ، وتكبّوا القسي ، يقول له :

- يا طارق : تقدّم لشأنك .

ونظر إليه ، وإلى أصحابه فألفاهم قد دخلوا
الأندلس قدّامه ؛ فهبّ من نومه مُستبشراً ، وبشّر
أصحابه ، وثابت إليه نفسه ، ثقةً يُشراه ، فقويت
روحه ، ولم يشك لحظةً في الظفر .

وحطّ بجبل طارق المنسوب إليه ، ولم تزل المراكب
تعود حتى توافي جميع أصحابه عنده ، وتأهبّ لشنّ
الغارة . وإذا بخبر نزوله إلى البر يبلغ لذرّيق ،
فيتأهبّ لملاقاة الغزاة ويبادر في جموعه ؛ وهم نحو
مئة ألف ، ذوى عُدّة وعدد ، وينطلق ليقاتل الذين
جاءوا يقاتلونهم في عُقر داره .

رأى طارق جيش الأندلس ، فكتب إلى موسى
بأنه قد زحف عليه لذرّيق ، بما لا طاقة له به ، فبعث
له موسى خمسة آلاف من المسلمين ، فصار جيش
طارق اثني عشر ألفاً من الأبطال الصناديد .

وأصاب طارقَ عجزاً من أهل البلاد ، راح
يسألها عن أحوال القوم ؟ فقالت له في بعض
قولها :

- إنه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم
عن أمير ، يدخل إلى بلدهم هذا ، ويغلبُ عليه ،
ويصفُ من نعتِه أنه ضخْمُ الهامة ، وأنت كذلك :
وأنَّ في كَتِفِه السَّرى شامة ، عليها شعر ، فإن
كانت بك هذه العلامة ، فأنت هو .

فكشف طارقُ ثوبه ، فإذا بالشَّامة في كَتِفِه ،
فاستبشَرَ بذلك ، وراح يتأهبُّ للمعركة التي
ستفصلُ بينه وبين لُذريق .

أحرق طارق سفينه ، حتى يئأس جنوده من
 العودة ، وحتى يُقاتلوا في استيسال ، دون أن يخطر
 الفِرَارُ لهم على بال ، وقام في أصحابه ، يحثهم على
 الجهاد ، ويرغبهم فيه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم
 قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ! أَيْنَ الْمَقَرُّ ؟ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ ،
 وَالْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَاللَّهِ إِلَّا الصَّدْقُ
 وَالصَّبْرُ . وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، أَضِيعُ مِنَ
 الْإِيْتَامِ ، فِي مَأْذِبَةِ اللَّئَامِ . وَقَدْ اسْتَقْبَلَكُمْ عَدُوَّكُمْ
 بِجَيْشِهِ ، وَأَسْلِحَتِهِ وَأَقْوَاتِهِ مَوْفُورَةً ، وَأَنْتُمْ لَا وَزَرَ
 (أَي مَعْقِل) لَكُمْ إِلَّا سَيُوفُكُمْ ، وَلَا أَقْوَاتَ لَكُمْ
 إِلَّا مَا تَسْتَخْلِصُونَهُ مِنْ أَيْدِي عَدُوَّكُمْ . وَإِنْ امْتَدَّتْ

بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تُنجزوا لكم أمراً ،
 ذهبت ربحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم ،
 الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه
 العاقبة من أمركم ، بمنأزة هذا الطاغية ، فقد ألقى
 به إليكم مدينته الحصينة ؛ وإن انتهاز الفرصة فيه
 لممكن ، إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنني لم
 أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على
 خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا أبداً بنفسى .
 واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً ،
 استمتعتم بالأرفه الألد طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم
 عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفر من حظى ، وقد
 بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسنان ،
 من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ،
 والحلل المنسوجة بالعقيان (الذهب) ، المقصورات
 فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم
 الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين ، من الأبطال

عُزْبَانَا ، وَرَضِيْكُمْ لِلرَّوْكِ هَذِهِ الْجَزِيْرَةُ أَصْهَارًا
وَأَخْتَانَا ، ثِقَّةٌ مِنْهُ بَارْتِيَا حِكْمَ لِلطَّعَانِ ، وَاسْتِمَاحِكُمْ
لُجَالِدَةِ الْأَبْطَالِ الْفُرْسَانِ ، لِيَكُونَ حِظُّهُ مِنْكُمْ ثَوَابَ
اللَّهِ عَلَى إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ بِهَذِهِ الْجَزِيْرَةِ ،
وَلِيَكُونَ مَغْنَمُهَا خَالِصَةً لَكُمْ مِنْ دُونِهِ ، وَمِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ سِوَاكُمْ . وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ إِنْجَادِكُمْ ، عَلَى
مَا يَكُونُ لَكُمْ ذِكْرًا فِي الدَّارَيْنِ .

وَاعْلَمُوا أَنِّي أَوَّلُ مُجِيبٍ إِلَى مَا دَعَوْتُكُمْ ، وَإِنِّي
عِنْدَ مُلْتَقَى الْجَمْعَيْنِ ، حَامِلٌ بِنَفْسِي عَلَى طَاغِيَةِ الْقَوْمِ
لِذَرْيَقٍ ، فَقَاتِلْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . فَاحْمِلُوا مَعِيَ ، فَإِنْ
هَلَكْتُ بَعْدَهُ ، كَفَيْتُكُمْ أَمْرَهُ ، وَلَمْ يُعْزِزْكُمْ بِطُلٍّ
عَاقِلٌ تُسَيِّدُونَ أُمُورَكُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ هَلَكْتُ قَبْلَ
وَصُولِي إِلَيْهِ ، فَاخْلُقُونِي فِي عَزِيمَتِي هَذِهِ ، وَاحْمِلُوا
بِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ ، وَاكْتَفُوا الْهَمَّ مِنْ فَتْحِ هَذِهِ الْجَزِيْرَةِ
بِقَاتِلِهِ ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَهُ يُخَذِّلُونَ . »

أقبل لُذْرِيْق وهو على سريرِه ، وقد حُمِلَ على رأسِه رِواقٌ دِياجٌ يُظَلِّلُه ، وهو مُقْبِلٌ في غِيابة من البُتُودِ والأعلام ، وبين يَدِه المقاتِلَةُ والسَّلاح ، وأقبل طارقٌ في أصحابِه عليهم الزَّرْدُ ، ومن فوق رءوسِهم العِمامُ البيضُ ، وبأيديهم القِسيُّ العِريَّةُ ، وقد تَقَلَّدُوا السُّيُوفَ ، واعتقلوا الرِّماحَ ، فلمَّا نظر إليهم لُذْرِيْق ؛ تذكَّرَ تِمثالَ الرَّجُلِ البَربريِّ ، الَّذي رآه في بيتِ الحِكمة ، يومَ أَصرَّ على فَتْحِ ذلك البيتِ ، الَّذي كان كلُّ ملكٍ يضعُ بِيابِه قُفْلاً يومَ تَتَوَيَّجُه ، فقال :

— إِنَّ هَذِهِ الصُّوْرَ هِيَ الَّتِي رَأَيْنَاهَا فِي بَيْتِ الحِكمة .

فداخله منهم رُعب ، واستولى عليه خوفٌ
شديد . ونظر طارق ورأى الملك في أبهته ، فقال :
- هذا طاغية القوم ، إني حاملٌ عليه ، فاحملوا
معي .

وبدأ الهجوم ، وراح طارق يلعب بالسيف ،
ويشق طريقه إلى لذريق ، وحمل أصحابه معه ،
فتفرقت المقاتلة من بين يدي لذريق ، فخلص إليه
طارق ، وضربه بالسيف على رأسه ، فقتله على
سريره . فلما رأى أصحابه مصراعَ صاحبهم ، دبَّ
الدعرُ في قلوبهم ، وراحوا يؤلون الأدبار ، ولاح
النصرُ للمسلمين .

وقُتل خلقٌ كثيرٌ ، ووقع في الأسر خلقٌ كثيرٌ ،
وجمع المسلمون الغنائم ، وتسامع الناسُ من أهل برٍّ
العدوة بالفتح على طارق بالأندلس ، وسعة الغنائم
فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحرَ

على كلِّ ما قَدَرُوا عليه من مَرَاكِبَ وقواربٍ
صغيرة ، فلدَحِقُوا بطارق : وارتفع أهلُ الأندلس عند
ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السَّهل
ولحِقُوا بالجبال .

وأقبل طارقُ يفتحُ البلاد ، حتَّى إذا بلغَ مدينةً
حصينةً امتنعتْ عليه ، حاصرها . وفي ذاتِ ليلة ،
خرجَ إلى النهر لبعض حاجته ، فصادف رجلاً من
رجال المدينة هناك : فوثبَ عليه طارقُ في الماء ،
فأخذه وجاء به إلى المعسكر ، وراح يسأله عن المدينة
وعن أهلها ؟ فإذا به يعترفُ بأنَّه أميرُ المدينة .
وصالحه طارقُ على ما أحبَّ ، وضربَ عليه
الجزية ، وخلقى سبيله .

قذف الله الرُّعب في قلوب الأندلسيين ، لما
 رأوا طارقاً يُوغِلُ في البلاد ، وكانوا يحسبونه راغباً
 في المغنم ، عاملاً على القُفول ، فسقط في أيديهم ،
 وتطايروا عن السُّهول إلى المعازل ، وصعد ذو القُوَّة
 منهم إلى عاصمة مملكتهم طليطلة ، فقال يُلِيانُ
 لطارق :

— قد هزمت القوم ، فانطلق لعاصمتهم : وهؤلاء
 أدلاء من أصحابي مهرة ، ففرِّق جيوشك معهم في
 جهات البلاد ، واعمد أنت إلى طليطلة حيث
 معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم ،
 والاجتماع إلى أولى رأيهم .

وعمل طارق بن نصيحة يُلِيان ، ففرِّق جيوشه مع

أدلاء من أصحاب يُليان ، بعث مُغيثًا « الرومي » ،
مولى الوليد بن عبد الملك ، إلى قُرطبة ، وكانت من
أعظم مدائنهم ، في سبع مئة فارس ، فما كان في
جيش طارق راجلٌ بعد أن ركب المسلمون خيول
أهل البلاد ، وبعث جيشًا آخر إلى مالقة ، وآخر إلى
عرناطة ، وسار هو في معظم الناس يُريد طليطلة .
أرسل الأدلاء ، فأمسكوا راعي عم ، فسئل عن
قُرطبة ؟ فقال :

- رحل عنها عظماء أهلها إلى طليطلة ، وبقي فيها
أميرها في أربع مئة فارس من خيلتهم ، مع صُعاء
أهلها .

وسئل عن سُورها ؟ فقال .

- إنه حصينٌ عال فوق أرضها . إلا أن فيه ثُغرة .

ووصفها هم .

وجاء الليل ، وأقبلوا نحو المدينة ، ووطأ الله لهم
أسباب الفتح ، بأن أرسل السماء برداذ ، أخفى
ودقه حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رؤيذا ، حتى
عبروا نهر قرطبة ليلا ، وقد أغفل حرس المدينة
احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ، ضيقا بالذى
نالهم من المطر والبرد .

فترجل القوم حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر
والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقل ، وأرادوا
التعلق بالسور ، فلم يجدوا متعلقا ، ورجعوا إلى
الراعى ، ليدهم على الشجرة التى ذكرها ، فأراهم
إياها ، فإذا من الصعب الصعود إليها ، إلا أنه كانت
فى أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها من التعلق بها ،
فصعد رجل من أشداء المسلمين فى أعلاها ، ونزع
رجل عمامة ، فناوله طرفها ، وأعان بعض الناس
بعضا حتى كثروا على السور ، وركب قائد

المسلمين ، ووقف من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين
للسُّور ، بالهجوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نفراً
منهم ، وكسروا أقفال الباب وفتحوه ، فدخل
المسلمون يُكبرون ، واستولوا على المدينة الحصينة ،
ولكن مَلِكها وبعض حاشيته ، انطلق إلى الكنيسة
وتحصَّن بها .

بَقِيَ الْمَلِكُ فِي الْكَنِيسَةِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرَ ، حَتَّى ضَاقَ
 مِنْ ذَلِكَ قَائِدُ الْمُسْلِمِينَ ، فَتَقَدَّمَ مِنْ أَسْوَدَ مِنْ عِيْلِهِ
 اسْمُهُ رَبَّاحُ ، وَكَانَ يَجِيدُ الْإِخْتِفَاءَ ، وَأَخْبَرَهُ أَنْ يُحَاوَلَ
 الْقَبْضَ عَلَى وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْمِ ، يَعْرِفُ مِنْهُ أَخْبَارَهُمْ .
 انْطَلَقَ الْعَبْدُ حَتَّى اقْتَرَبَ مِنَ الْكَنِيسَةِ ، وَدَعَا
 ضَعْفُ عَقْلِهِ إِلَى أَنْ يَصْعَدَ فِي بَعْضِ الْأَشْجَارِ الْقَرِيبَةِ
 مِنَ الْكَنِيسَةِ ، لِيَجْنِيَ مَا يَأْكُلُهُ ؛ فَبَصُرَ بِهِ أَهْلُ
 الْكَنِيسَةِ ، وَشَدُّوا عَلَيْهِ ، فَأَخَذُوهُ فَمَلَكُوهُ ، وَهُمْ فِي
 ذَلِكَ هَائِبُونَ لَهُ ، مُنْكَرُونَ خَلْقَهُ ، إِذْ لَمْ يَكُونُوا
 عَايِنُوا أَسْوَدَ قَبْلَهُ ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، وَكَثُرَ لَغَطُهُمْ
 وَتَعَجُّبُهُمْ مِنْ خَلْقِهِ ، وَحَسَبُوا أَنَّهُ مُصْبِوْعٌ أَوْ مَطْلِيٌّ
 بَعْضُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُسَوَّدُ ، فَجَرَّدُوهُ وَسَطَ جَمَاعَتِهِمْ ،

وأدنوه إلى القناة التي منها كان يأتيهم الماء ، وأخذوا
 في غسله وتدليكه بالحبال الحُرْش حتى أدموه ،
 فاستغاثهم ، وأشار إلى أن الذي به خِلَقَة من بارئهم
 عز وجل ، ففهموا إشارته ، وكفّوا عنه وعن
 غسله ، واشتدّ فرغهم ، ومكث في إسارهم سبعة
 أيام لا يتركون التجمّع عليه ، والنظر إليه .

وفي ذات ليلة غافلهم وفرّ ، وانطلق إلى قائد
 المسلمين ، وعرفه بالذي اطلع عليه من شأنهم ،
 وموضع الماء الذي يتابونه ، ومن أي ناحية يأتيهم ،
 فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة ، في الجهة التي
 أشار إليها الأسود ، حتى أصابوها ، فقطعوها عن
 جريها إلى الكنيسة ، وسدّوا منافذها ، فلم يسع من
 فيها إلا التسليم . ولكن الملك غافل القوم ، وفرّ
 وحده ، يريد طليطلة .